مقدّمة

فى مساء الثلاثاء – الثالث والعشرين من شوال سنة ١٣٩٥ هـ الموافق الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٧٥ م – كنت فى طريق إلى الهند .

وبينما كانت الطائرة تحلق فى الأجواء – كان تفكيرى كله يحلق فى جو : « الحمد لله » !

لقد أخذت أسباب الحمد – فى حياتى – تتوالى على ذهنى : أستعرضها الواحد تلو الآخر ، ملاحظاً لطف الله – تعالى – الخفى ، ولطفه – سبحانه – الظاهر . !

الطائرة تسبح فى فضاء الله الواسع وأنا منغمس بخيالى فى لطائف الحمد لله » ، وفى إمداد الله تعالى لى بالنعم ! .

وبينا أنا فى هذا الاستغراق لمع فى ذهنى خاطر . .

أليس من شكر الله تعالى – على ما أنعم – أن أعترف فى كتاب بفضله ونعمه ؟ وأن أضمّن هذا الكتاب خلاصة ما هدانى الله تعالى إليه ، من آراء بثثتها فى مختلف الكتب ، والمقالات والمحاضرات . ؟

إن تاريخ كل إنسان ملىء بالفوائد .

قد تكون حوادث حدثت ، أو آراء قيلت .

إنها ماديات ومعنويات ، وهى أشكال تمر ، وظواهر لها وزنها وهى تجارب وملاحظات قد يفيد منها الآخرون ، أو يروّحون على أنفسهم بقراءتها ، ويمضون أوقاتهم فى تسلية لا تكون مضيعة للوقت .

وفى فضاء الله الواسع ، وبينما كانت الطائرة فى سيرها السريع نحو الهدف ، كنت أنا بين القلم والقرطاس أخطط لمنهج الكتاب !

وأذكر أن الرئيس « ابن سينا » حينما كان يعزم على تأليف كتاب : كان يعتكف – يومين أو ثلاثة فقط – اعتكافاً كاملاً ، أو شبه كامل ، ويأخذ فى وضع عناوين للأجزاء ، جاعلاً لكل جزء دفتراً ، ثم يأخذ فى وضع عناوين للأبواب – فى ثنايا الأجزاء – ويترك فى الدفاتر فراغاً بين الباب والباب ، ثم يأخذ فى وضع عناوين الفصول فى الأبواب ، تاركاً فراغاً بين كل فصل وفصل ، بما يقدر أنه يكفى للفصل ، ثم يأخذ فى وضع إشارات سانحة لما عساه أن يكون فقرات . ثم يخرج من معتكفه معتبراً أن ما بقى من الكتاب إنما هو تشطيبه فحسب وأنه فى الوضع « السينوى » قد انتهى من تأليفه . وبعد ذلك يحمل معه الكتاب أينما سار . فيكتب – بحسب الظروف – كلمة هنا ، وكلمة هناك : فى هذا الفصل ، أو ذاك ، من أواخر الكتاب ، أو من منتصفه ، أو من أوله بحسب الفكرة المواتية !

وانتهى اعتكافى ، وقد أوشكت الطائرة على الوصول إلى الغاية .

وحملت التخطيط معى .

وفى صباح الاثنين – السادس من ذى القعدة سنة ١٣٩٥ هـ – الموافق للعاشر من نوفمبر سنة ١٩٧٥ م – تذكرت التخطيط بعد صلاة الفجر فى « مدراس » من بلاد الهند ، فأخذت القلم وجلست فى شرفة الفندق ، وبدأت أكتب !

وقد علمتنى التجارب الماضية فى التأليف أن طريقة « ابن سينا » –

– مع بعض التعديل بالنسبة لى – من خير الطرق :

فالإنسان تختلف استعداداته ، وتختلف إمكاناته ، من آنٍ لآخر ، ومن الخير أن يعمل – فى مختلف الظروف ، العمل الميسور له .

ولقد كان « ابن سينا » يكتب ، لا يستند إلى هذا المرجع أو ذاك : ينقل منه ، أو يعزو إليه .

أما أنا ، فقد كنت أحتاج دائماً إلى مراجع .

وهذه المراجع أراجعها ، وأضع – بين قوسين – المهم منها ، ثم ألتمس نقله ، فى قصاصات من الورق .

ويتجمع عندى مئات من هذه القصاصات : فأرتبها فصولاً ، ثم أرتب الفصول ترتيباً متوالياً .

ثم أرتب قصاصات كل فصل .

ثم أكتب لا ألتزم ترتيب الفصول الذى وضعته .

وربما بدا لى بعد الفراغ من الكتاب أن أحدث تغييراً فى ترتيب الفصول .

وقد يتساءل القارئ عن استخدامى للقصاصات فى كل فصل ؟

وما كان استخدامى لها إلاّ لإنارة الطريق فى تفكيرى :

فقد تكون القصاصات موضع نقد !

وقد تكون موضع إهمال .

وقد تكون موضع استئناس لما أرى .

وقد أوردها لأستنتج منها جوّاً كان يعيشه المؤلف الذى أكتب عنه ، أو لأستنتج منها فكرته .

ولا بد – فى كل الأحوال – من أن يعزو المؤلف النص إلى قائله .

ولكن هذا الكتاب الذى بدأته – بتوفيق الله – لا أحتاج فيه إلى هذه العملية – عملية القصاصات والمراجع – فى استفاضة .

إنه سرد لحياتى ، يسير معها فى تتابعها .

وهو ليس سرداً لحياتى المادية فحسب . إن هذه الحياة المادية لم تأخذ منه إلا حجماً ضئيلاً .

إنه تاريخ لحياتى الفكرية على الخصوص .

وهو خواطر تمر فى أثناء الكتابة .

وهو محاولة لبيان بعض الزوايا من آرائى ، وكتبى الماضية .

أضعها مرة أخرى بين يدى القارئ ، لما أرى لها من أهمية خاصة .

إنه قصة فكر قبل أن يكون قصة حياة .

قصة فكر ، حاول صاحبه أن يصل جاهداً إلى الصراط المستقيم ، وأن يشرح ما وصل إليه للناس . وقد تعمدت الاستطراد تعمداً ، وذلك لأنشر هذا الرأى أو ذاك ، مما آمنت به ، سواء أنشرته من قبل ، أم لم أنشره ، ويمكننى أن أقول :

إنى أعيد فى هذا الكتاب تقييم حياتى .

أعيد هذا التقييم لنفسى بعد أن عشت هذه الحياة .

وأعيده للناس عسى أن يكون لهم فى حياتى بعض ما يأخذونه ، أو يكون لهم فيه مصدر للتأمل ، والتفكير .

والله أرجو أن يجعله مفيداً لكل من قرأه ، إنه سميع قريب مجيب .

ربع قرنٍ من حياتي .. تلميذاً